زيارة القبور

الشرعية والشركية

للامام الحجة محي الدين محمد البركوي

المتوفى سنة ٩٨١ هـ

لصاحب القلم السيال والسحر الحلال

العلامة المحقق ابن القيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان من نطفة أمشاج وجعله سميعاً بصيراً وهداه النجدين ؛ فمنهم من سلك طريق الجنة ؛ ومنهم من اختار سعيراً ؛ والصلاة والسلام على أفضل من أرسل بالحق بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا له فى إحياء الدين معيناً وظهيراً ؛ وهم فى مجاهداتهم لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا نصيرا .

وبعد : فهذه أوراق انتخبتها من إغاثة اللهفان فى مصائد الشيطان ؛ للشيخ الإمام العلامة ابن القيم الجوزى ، جعل الله روحه مع الأرواح التى رجعت إلى ربها راضية مرضية ، كتبتها لبعض إخوان الآخرة ، مع ضم ما وجدته فى الكتب المعتبرة ، لأن كثيراً من الناس فى هذا الزمان ، جعلوا بعض القبور كالأوثان ، يصلون عندها ويذبحون القربان ويصدر منهم أفعال وأقوال لا تليق بأهل الإيمان ، فأردت أن أبين لهم ما ورد به الشرع فى هذا الشأن حتى يتميز الحق من الباطل عند من يريد تصحيح الإيمان ، والخلاص من كيد الشيطان والنجاة من عذاب النيران ، والدخول فى دار الجنان ؛ والله الهادى وعليه التكلان .

(اعلم) أن السعادة العظمى ؛ والكرامة الكبرى فى الدنيا والعقبى ، لا تحصل إلا بمتابعة خاتم النبيين ، صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين ، لكن الشيطان للانسان عدو مبين ؛ يصدهم بأنواع مكائده عن الصراط

المستقيم ، ويدعوهم إلى الإثم العظيم ، ليكونوا من أصحاب الجحيم ، وغاية بغيته سلب الايمان ، حتى يكونوا من أهل الخلود فى النيران ، ومن أعظم مكائده التى كاد بها أكثر الناس ، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته ، ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبد اربابها من دون الله تعالى ، وعبدت قبورهم واتخذت أوثاناً ، وبنيت عليها الهياكل ، وصورت صور اربابها فيها ، ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل ، ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى ، وكان ابتداء هذا الداء العظيم فى قوم نوح عليه السلام كما أخبر سبحانه وتعالى عنهم حيث قال (قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكراً كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)

قال ابن عباس وغيره من السلف : كان هؤلاء قوماً صالحين فى قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ، وكان هذا مبدأ عبادة الاصنام . فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل ، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضى الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرت ما رأته فيها ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى .

فى هذا الحديث ما ذكر من الجمع بين التماثيل والقبور. فلما كان مبدأ عبادة الأصنام ومنشؤها من فتنة القبور، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته عن الافتتان بها بوجوه كثيرة:

منها أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن اتخاذها مساجد؛ كما ثبت فى صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله البجلى رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس يقول: ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك.

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنه عليه السلام قال فى مرضه الذى لم يقم منه: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا. قالت ولولا ذلك لأبرز قبره عليه السلام، لكن خشى أن يتخذ مسجدا.

وقوله «خشى» بضم الخاء تعليل لمنع إبراز قبره عليه السلام، فإنهم اختلفوا بعد موته عليه السلام فى موضع دفنه حتى سمعوا ما روى عنه عليه السلام أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون. فلما كان هذا من خصائصهم دفنوه فى حجرتها، خلاف ما اعتادوه من الدفن فى الصحراء لئلا يصلى أحد على قبره ويتخذوه مسجداً، فإنه عليه السلام نهى أمته عن اتخاذ القبور مساجد فى آخر حياته؛ ثم لعن من فعل ذلك من أهل الكتاب تحذيراً لهم أن يفعلوا ذلك.

وقد صرح عامة الطوائف بالنهى عن بناء المسجد عليها والصلاة إليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة؛ ونص أصحاب أحمد ومالك والشافعى بتحريم ذلك.

وطائفة وإن أطلقت الكراهة لكن ينبغى أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ماتواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهى عنه .

ومنها أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن إيقاد السرج عليها لما روى الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه السلام لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .

فكل ما لعن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من الكبائر وقد صرح الفقهاء بتحريمه . وقال أبو محمد المقدسى : لو كان اتخاذ السرج عليها مباحا لم يلعن من فعله ؛ وقد لعن لأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة وإفراطا فى تعظيم القبور تشبيها بتعظيم الاصنام ؛ ولهذا قال العلماء لا يجوز أن ينذر للقبور ، لا شمع ، ولا زيت ولا غير ذلك ؛ فإنه نذر معصية لا يجوز الوفاء به بالاتفاق ، ولا أن يوقف عليها شىء لأجل ذلك فإن هذا الوقف لا يصح ولا يحل إثباته وتنفيذه .

ومنها أنه عليه السلام نهى عن تجصيصها والبناء عليها ، كما روى مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام نهى عن تجصيص القبر وأن يبنى عليه ، قيل هذا يحتمل وجهين :

أحدهما البناء عليه بالحجارة وما يجرى مجراها ، والآخر أن يضرب عليه خباء ونحوه ، وكلا الوجهين منهى عنه لعدم الفائدة فيها مع إضاعة المال ، وبكونه من صنيع أهل الجاهلية .

ومنها أنه عليه السلام نهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود فى سننه عن جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام نهى عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها .

ومنها أنه عليه السلام نهى عن الزيادة عليها من غير ترابها كما روى أبو داود عن جابر رضى الله عنه أيضاً أنه عليه السلام نهى عن تجصيص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه

ومنها أنه عليه السلام نهى عن الصلاة عنده ؛ كما روى مسلم فى صحيحه عن مرثد الغنوى أنه عليه السلام قال : لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها . وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام . رواه الإمام أحمد وأهل السنن والأحاديث فى النهى عن ذلك والتغليظ فيه كثيرة ؛ وذلك لأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها وقد تقدم أن ابتداء عبادة الأصنام إنما كان من فتنة القبور ، ولهذا لعن النبي عليه السلام أهل الكتاب لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ، وأن هؤلاء المردة كانوا يصلون فى المواضع التى دفن فيها أنبياؤهم ، إما نظراً منهم بأن السجود لقبورهم تعظيم لها ؛ وهذا شرك جلى ، ولهذا قال النبى عليه السلام : اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ؛ وإما ظنا منهم بأن التوجه إلى قبورهم حالة الصلاة أعظم موقعاً عند الله تعالى لاشتماله على أمرين : عبادة الله تعالى وتعظيم الأنبياء . وهذا شرك خفى

قال ابن القيم فى إغاثته نقلا عن شيخه (ابن تيمية) وهذه العلة التى لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هى التى أوقعت كثيراً من الأمم ، إما فى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فإن الشرك بقبر الرجل الذى يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بشجر أو حجر ، ولهذا تجد كثيرا من الناس عند القبور يتضرعون ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى مساجد الله تعالى ولا

فى وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وكثير منهم يرجون من بركة الصلاة عندها ولديها مالا يرون فى المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي عليه الصلاة والسلام مادتها حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقا وإن لم يقصد الصلاة عندها ، ووقت طلوع الشمس ووقت غروبها ووقت استوائها : لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة للشمس فيها ، فنهى أمته عن الصلاة وإن لم يقصدوا ماقصده المشركون ،وإذاقصدالرجل الصلاة عند المقبرة متبركاً بالصلاة فى تلك البقعة ؛ فهذا عين المحادة لله تعالى ولرسوله والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى ، فإن العبادات مبناها على الاستئذان والاتباع : لا على الهوى والابتداع ، فإن المسلمين أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين نبيهم أن الصلاة عند المقبرة منهى عنها .

* * *

وفى هذا دليل على ضلال من زعم أن النهى عن الصلاة فيها مختص بالمقابر المنبوشة لما فيها من النجاسة الحاصلة بالنبش ؛ وهذا أبعد شيء من مقاصد الرسول ﷺ ، بل هو باطل من عدة أوجه .

أما أولا فلأن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة المنبوشة وغير المنبوشة .

وأما ثانياً فلأن النبي عليه الصلاة والسلام لعن اليهود والنصارى على اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ؛ ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة الحاصلة بالنبش ، لأن قبور أنبيائهم لا تنبش ، ولو نبشت فهى من أطهر البقاع ، ليس للنجاسة عليها طريق البتة ، فإن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم ، فهم فى قبورهم طريون

وأما ثالثاً فإنه عليه الصلاة والسلام اخبر ان الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام ولو كان ذلك للنجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر أولى من ذكر القبور .

وأما رابعاً فلأنه عليه الصلاة والسلام قرن فى اللعنـــة بين متخذى المساجد عليها وموقدى السرج لديها ، فهما فى اللعنة قرينان وفى ارتكاب الكبيرة سيان .

ومعلوم ان ايقاد السراج انما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها أوثاناً يرتص إليها ، وكذا اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها وتعريض للفتنة بها ، ولهذا قرن بينهما .

وأما خامساً فلأنه عليه الصلاة والسلام قال اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله تعالى على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، فذكره عليه الصلاة والسلام اشتداد غضب الله تعالى على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد عقيب قوله اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، تنبيه منه على سبب لحوق اللعن بهم وهو توسلهم بذلك إلى ان تصير قبورهم أوثانا تعبد .

وأما سادساً فلأن فتنـــة الشرك بالصلاة فيها ومشابهة عبادة الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر فإنه عليه الصلاة والسلام قد نهى عن تلك المفسدة سدا لذريعة التشبه التى لا تكاد تخطر ببال المصلى فكيف بهـــذه الذريعة التى كثيراً مما تدعو صاحبها إلى الشرك بدعاء الموتى وطلب الحـــوائج منهم

واعتقاد ان الصلاة عند قبورهم أفضل من الصلاة فى المساجد وغير ذلك مما هو محادة ظاهرة لله تعالى ولرسوله فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة .

وبالجملة ان من له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم من الرسول عليه الصلاة والسلام مقاصده جزم جزماً لا يحتمل النقيض ان هذه المبالغة منه عليه الصلاة والسلام ، واللعن والنهى بالصيغة التى هى لا تفعلوا ، وصيغة انى انهاكم: ليس لأجل النجاسة الحاصلة بالنبش بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه وارتكب ما نهاه عنه واتبع هواه ،ولم يخش ربه ومولاه ؛وقل نصيبه أوعدم من تحقيق شهادة ان لا إله إلا الله ، فإن هذا وأمثاله من النبي عليه الصلاة والسلام صيانة لحمى التوحيد من ان يلحقه الشرك ويغشاه وتجريد له ان يعدل به سواه فأبى أكثر الناس إلا عصيانا لأمره ، وارتكابا لنهيه ، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين .

ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل عباد يغوث ويعوق ونسراً وسائر عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة ، فإن هؤلاء جمعوا بين الغلو فيهم والطعن فى طريقهم ، فهدى الله تعالى أهل التوحيد حيث سلكوا طريقتهم وأنزلوهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها من العبودية ،وسلبوا عنهم خصائص الربوبية ، وهذا غاية تعظيمهم وإكرامهم ، ونهاية طاعتهم ومتابعتهم .

ولا تحسبن أيها المنعم عليه باتباع الصراط المستقيم، ان النهى عن اتخاذ القبور أوثانا والصلاة إليها وبناء المساجد عليها وإيقاد السرج لديها، ان هذا غض من أصحابها وتنقيص لهم، كلا ليس هذا من تنقيصهم كما يحسبه أهل البدع والضلال، بل هذا من تعظيمهم وإكرامهم واحترامهم وسلوك فيما يحبون، واجتناب عما يكرهون وأنت وأيم الله وليهم ومحبهم وناصر طريقتهم وسنتهم، وأنت على هداهم

وأما هؤلاء المبتدعون الضالون فقد نقصوهم فى صورة التعظيم، فهم أبعد الناس من هداهم ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح، واليهود مع موسى والروافض مع على، فأهل الحق أحق بأهل الحق من أهـــل الباطل، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، فإن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن.

ولذا تجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من كان يتبع السنن ويحييها مشتغلين بغيره عما أمر به ودعا إليه.

وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما يكون باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادة قبورهم، والعكوف عليها واتخاذها أوثانا، فإن من اقتفى آثارهم كان سبباً لتكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه

وإياهم عن ذلك الأجر ، فأى تعظيم واحترام لهم فى هذا .

ومنها انه عليه السلام أمر بتسويتها ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى انه قال : قال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته .

ومنها انه عليه الصلاة والسلام نهى عن اتخاذها عيداً ، كما ثبت فى سنن أبى داود بإسناد حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال لا تجعلوا بيوتكم مقابر ولا تجعلوا قبرى عيداً فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم .

وفى مسند أبى يعلى الموصلى عن على بن الحسين أنه رأى رجلا يجىء إلى فرجة كانت عند قبر النبى عليه الصلاة والسلام فيدخل فيها فيدعو فنهاه ؛ فقال ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبى عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا تتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً فإن تسليمكم يبلغنى اينما كنتم .

وقال سعيد بن منصور اخبرنا عبد العزيز بن محمد اخبرنى سهيل ابن أبى سهيل قال رآنى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه عند القبر فنادانى وهو ببيت فاطمة يتعشى فقال هلم إلى العشاء فقلت لا أريد ؛ فقال مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت سلمت على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لذا دخلت المسجد ، ثم قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تتخذوا بيتى عيداً ولا بيوتكم

مقابر وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم ، فما أنت ومن بالأندلس إلا سواء منه عليه الصلاة والسلام .

فإن قبره عليه الصلاة والسلام لما كان سيد القبور وأفضل قبر على وجه الأرض ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن اتخاذه عيداً ، فقبر غيره أولى بالنهى كائنا من كان : ثم عليه الصلاة والسلام قرن ذلك النهى بقوله ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وهو أمر بتحرى النافلة فى البيوت حتى لا تكون بمنزلة القبور ونهى عن تحرى العبادة عند القبور ثم عقبه بقوله (وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم) وأشار بذلك إلى أن مايناله منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبره وبعدكم عنه ؛ فلا حاجة بكم إلى الاتخاذ عيداً كما اتخذ المشركون من أهل الكتاب قبور أنبيائهم وصالحيهم عيداً ؛ فإن اتخاذ القبور عيداً هو من أعيادهم التى كانوا عليها قبل مجىء الاسلام ، وقد كان لهم أعياد زمانية وأعياد مكانية ، فلما جاء الإسلام أبطلها الله تعالى وعوض عن أعيادهم الزمانية عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى ، كما عوض عن أعيادهم المكانية الكعبة البيت الحرام وعرفات ومنى والمشاعر .

قال ابن القيم فى اغاثته : قد حرف هذه الأحاديث بعض من أخذ شبها من النصارى بالشرك وشبها من اليهود بالتحريف فقال هـــذا أمر بملازمة قبره عليه الصلاة والسلام والعكوف عنده واعتياده قصده وانتيابه ؛ ونهى أن يجعل كالعيد الذى إنما يكون

فى العام مرة أو مرتين ، فكأنه قال لا تجعلوا قبرى بمنزلة العيد الذى يكون من الحول إلى الحول واقصدوه كل وقت وكل ساعة .

وهذا محادة ومناقضة لما قصده الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ وقلب للحقائق ؛ ونسبة الرسول عليه السلام إلى التدليس والتلبيس ، إذ لا ريب ان من أمر الناس بملازمة أمر واعتياده وكثرة انتيابه بقوله لا تجعلوا قبرى عيداً ، فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان : فإن لم يكن هذا تنقيصا فليس للتنقيص حقيقة فينا ؛ ولا شك ان ارتكاب كل كبيرة بعد الشرك أسهل إثما وأخف عقوبة من تعاطى مثل ذلك فى دينه عليه السلام وسنته ، وهكذا غيرت ديانات الرسل

ولولا أنه تعالى أقام لدينه الانصار والأعوان الذابين عنه لجرى عليه ما جرى على الاديان قبله ، قال عليه السلام يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ؛ فإنه عليه السلام بين فى هذا الحديث أن الغالين يحرفون ما جاء به؛ وأن المبطلين ينتحلون أن باطلهم هو ما كان عليه النبى عليه السلام ، وأن الجاهلين يتأولونه على غير تأويله .

وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاث : فلو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال هؤلاء الضالون لم ينه عن اتخاذ قبور الانبياء مساجد ، ولم يلعن من فعل ذلك فإنه عليه السلام إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها : فكيف يأمر بملازمتها والعكوف

عندها وان يعتاد قصدها واتيانها ولا تجعل كالعيد الذى يجىء من الحول إلى الحول ، وكيف يقول « وصلوا علىّ حيثما كنتم » بعد قوله لا تجعلوا قبرى عيدا ؟ وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضالون الذين جمعوا بين الشرك والتحريف .

وقد سمعت فيما سبق أن أفضل التابعين من أهل بيته على بن الحسين نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره عليه السلام ، واستدل بالحديث الذى رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده على ، وهو أعـــلم بمعناه من هؤلاء الطاغين ، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد ، ورأى ان ذلك من اتخاذه عيدا .

قال ابن القيم فى إغاثته نقلا عن شيخه : فانظر إلى هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذى لهم من رسول الله (ص) قرب النسب وقرب الدار ، لانهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، وكانوا إليه أضبط .

ثم فى اتخاذ القبور عيدا من المفاسد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله تعالى ما يغضب لأجله كل من كان فى قلبه وقار لله تعالى وغيرة على التوحيد وتقبيح للشرك وتهجين للكفر والبدع ، ولكن « ما لجرح بميت ايلام »

فمن مفاسد اتخاذها عيدا ان غلاة متخذيها عيدا إذا رأوها من موضع بعيد ينزلون من الدواب ويضعون الجباه على الارض ، ويقبلون

ويكشفون الرؤس وينادون من مكان بعيد ويستغيثون بمن لا يبدىء ولا يعيد، ويرفعون الاصوات بالضجيج، ويرون أنهم قد ازدادوا فى الربح على الحجيج، حتى إذا وصلوا إليها يصلون عندها ركعتين، ويرون انهم قد أحرزوا من الاجر أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبور سجدوا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا، وقد ملؤا أكفهم خيبة وخسرانا: فلغير الله تعالى بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الاصوات؛ ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات واغناء ذوى الفاقات ومعافاة أولى العاهات والبليات.

ثم أنهم ينتشرون حول القبر طائفين تشبيها له بالبيت الحرام الذى جعله الله تعالى مباركا وهدى للعالمين، ثم يأخذون فى التقبيل والاستلام كما يفعل بالحجر الأسود فى المسجد الحرام؛ ثم يخرون على الجباه والخدود: والله تعالى يعلم أنها لم تعفر كذلك بين يديه فى السجود؛ ثم يكملون مناسك حج القبر بالتقصير والحلاق، ويستمتعون من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم نصيب عند من هو الخلاق: ثم يقربون لذلك الوثن القرابين، وتكون صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، ثم تراهم يهنىء بعضهم بعضاً ويقول أجزل الله لنا ولكم أجراً وافرا.

ثم إذا رجعوا يسألهم بعض غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة البيت الحرام فيقول لا ولو بحجك كل عام

هذا ولم نتجاوز فيما حكينا عنهم ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم إذ هي فوق ما يخطر بالبال ؛ ويدور في الخيال ؛ وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد ما هو ذريعة إلى هذا المحظور ؛ وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما يؤول إليه ما نهى عنه والخير والهدى في اتباعه وطاعته؛ والشر والضلال في معصيته ومخالفته

ومن جمع بين سنة رسول الله (ص) في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ؛ وبين ما عليه أكثر الناس اليوم ؛ رأى أحدهما مضادا للآخر مناقضا له بحيث لا يجتمعان أبدا ؛ فإنه عليه السلام نهى عن الصلاة إلى القبور وهم يخالفونه ويصلون عندها ؛ ونهى عن اتخاذ المساجد عليها وهم يخالفونه ويبنون عليها مساجد ويسمونها مشاهد ونهى عن ايقاد السرج عليها وهم يخالفونه ويوقدون عليها القناديل والشموع بل يوقفون لذلك أوقافا ، وأمر بتسويتها وهم يخالفونه ويرفعونها من الارض كالبيت ونهى عن تجصيصها والبناء عليها وهم يخالفونه ويجصصونها ويعقدون عليها القباب ؛ ونهى عن الكتابة عليها ؛ وهم يخالفونه ويتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره ؛ ونهى عن الزيادة عليها غير ترابها وهم يخالفونه ويزيدون عليها سوى التراب الآجر والاحجار والجص ؛ ونهى عن اتخاذها عيدا وهم يخالفونه ويتخذونها عيدا ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد وأكثر ، والحاصل أنهم مناقضون لما أمر به الرسول عليه السلام

ونهى عنه ؛ ومحادون لما جاء به

وقد آل الأمر بهؤلاء الضالين المضلين إلى أن شرعوا للقبور حجا ووضعوا لها مناسك ، حتى صنف بعض غلاتهم فى ذلك كتابا وسماه مناسك حج المشاهد مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول فى دين عبادة الاصنام ، فانظر إلى ما بين ما شرعه النبى عليه السلام من النهى عما تقدم ذكره فى القبور ؛ وبين ما شرعه هؤلاء وما قصدوه من التباين ، ولا ريب أن فى ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره .

(فمنها) تعظيمها الموقع فى الافتتان بها (ومنها) تفضيلها على أحب البقاع إلى الله تعالى فإنهم يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب ، وغير ذلك مما لا يفعلونه فى المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه ، وذلك يقتضى عمارة المشاهد وخراب المساجد ، ودين الله الذى بعث فيه رسولا بضد ذلك ، ولهذا كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين ؛ إذ عمروا المشاهد وخربوا المساجد .

ومنها اعتقاد ان بها يكشف البلاء ، وينصر على الاعداء ؛ ويستنزل الغيث من السماء ، إلى غير ذلك من الرجاء .

ومنها الشرك الأكبر الذى يفعل عندها ، فإن الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكر ؛ كان أبغض الاشياء إلى الله تعالى وأكرهها له ، ولذلك رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة مالم يرتبه على ذنب آخر سواه ، وأخبر أنه لايغفره وأن أهله نجس ، ومنعهم قربانه حرمه ، وحرم ذبائحهم ومنا كحتهم وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين ، وجعلهم أعداء له وللملائكته ورسله وللمؤمنين ، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأن يتخذوهم عبيدا ، وهذا لأن الشرك هضم لحق

الربوبية وتنقيص لعظمة الالهية وسوء ظن برب العالمين ، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ، ولو أحسنوا الظن لوحدوه حق توحيده ولم يرجوا شيا من غيره ، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عنهم فى ثلاثة مواضع من كتابه أنهم ماقدروا الله حق قدره أى ماعرفوه حق معرفته وكيف يعرفه حق معرفته من يجعل له عدلا وندا يحبه ويخافه ويرجوه ، ويذل له ويسويه برب العالمين .

ومعلوم أنهم ما ساووا أوثانهم به تعالى فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال ؛ ولا قالوا إنها خلقت السموات والارض وأنها تحيي وتميت ؛ وإنما ساووها به تعالى فى محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها ، كما ترى على ذلك أهل الشرك ممن ينسب إلى الإسلام .

ومنها الدخول فى لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها ومنها المشابهة بعباد الأصنام بمايفعلونه عندها من العكوف عليها ،والمجاورة عندها وتعلق الستور عليها واتخاذ السدنة لها حتى أن عبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد .

ومنها النذر لها ولسدنتها .

ومنها المخالفة لله ولرسوله والمناقضة لما شرعه فى دينه .

ومنها إماتة السنن وإحياء البدع .

منها السفر إليها مع التعب الأليم والاثم العظيم : فإن جمهور العلماء قالوا السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة ، لم يفعلها أحد من الصحابة والتابعين ، ولا أمر بها رسول رب العالمين ؛ ولا استحبها أحد من أئمة المسلمين؛ فمن اعتقد ذلك قربةوطاعة فقد خالف السنةوالإجماع ؛ ولو سافر إليها بذلك الاعتقاد يحرم بإجماع المسلمين ، فصار التحريم

من جهة اتخاذه قربة ، ومعلوم أن أحدا لا يسافر إليها إلا لذلك ، وقد ثبت فى الصحيحين أنه عليه السلام قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدى هذا

(ومنها) ايذاء أصحابها فإنهم يتأذون بما يفعل عند قبورهم مما ذكر ويكرهونه غاية الكراهة كما أن المسيح يكره ما يفعله النصارى فى حقه ، وكذلك غيره من الأنبياء والعلماء والمشايخ يؤذيهم مايفعله اشباه النصارى فى حقهم ، وهم يتبرؤن منهم يوم القيامة كما قال الله تعالى (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أءنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) وقال الله تعالى (يا عيسى بن مريم أءنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق)

(ومنها) أن الذى شرعه النبى عليه السلام عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة والاتعاظ والاعتبار بحال المزور ، والاحسان إليه بالدعاء له والترحم عليه ، حتى يكون الزائر محسنا إلى نفسه وإلى الميت ، فقلب هؤلاء الأمر وعكسوا الدين ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه وسؤاله الحوائج واستنزال البركات منه ، ونحو ذلك فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت ، فإنه عليه السلام لسد ذريعة الشرك نهى أصحابه فى أوائل الاسلام عن زيارة القبور لكونهم حديثى عهد بالكفر ، ثم لما تمكن التوحيد فى قلوبهم أذن لهم فى زيارتها وبين فائدتها وعلمهم كيفيتها تارة بقوله وتارة بفعله ، وذلك فى الأحاديث الكثيرة ، لكن نذكر ههنا عدة منها فى الاذن وبعضها فى التعليم وفى ضمنها بيان الفائدة .

﴿ أما التى فى الإذن ﴾

فمنها حديثا أبى سعيد (١) انه عليه السلام قال انى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر ولا تقولوا هجرا رواه الإمام أحمد والنسائى ، ومنها حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال (زوروا القبور فانها تذكر الموت) رواه مسلم .

﴿ وأما التى فى التعليم ﴾

فمنها حديث سليمان بن بريدة رضى الله عنه عن أبيه انه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا السلام على أهل الديار ، وفى لفظ مسلم السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية .

ومنها حديث عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلتى منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا ان شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد رواهما مسلم

ومنها حديث ابن عباس رضى الله عنهما انه قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر رواه الإمام أحمد والترمذى وحسنه .

---

(١) فى إغاثة اللهفان عن بريدة بدل أبى سعيد .

فإنه صلى الله عليه وسلم بين فى هـذه الاحاديث ان فائدة زيارة القبور إحسان الزائر إلى نفسه وإلى الميت ، أما احسانه إلى نفسه فيتذكر الموت والآخرة والزهد فى الدنيا والاتعاظ والاعتبار بحال الميت ؛ وأما إحسانه إلى الميت فبالسلام عليه والدعاء له بالرحمة والمغفرة وسؤال العافية.

فينبغى لمن يزور قبر ميت ، أى ميت كان ، سواء كان من أولياء الله تعالى أو من غيرهم من المؤمنين ان يسلم عليه ويسأل له العافية ويستغفر له ويترحم عليه كما تقـــدم فى الاحاديث ، ثم يعتبر فى حال من زاره وما صار إليه حاله ، وماذا سئل عنه وبماذا أجاب ، وهـل كان قبره روضة من رياض الجنة أو حفرة من النيران ، ثم يجعل نفسه كأنه مات ودخل فى القبر وذهب عنـه ماله وأهله وولده ومعارفه وبقى وحيدا فريدا وهو الآن يسئل ، فماذا يجيب ، وما يكون حاله ويكون مشغولا بهذا الاعتبار مادام هناك ويتعلق بمولاه فى الخلاص من هذه الأمور الخطيرة العظيمة ، ويلجأ إليه .

﴿ وأما قراءة القرآن ﴾

فجوزها بعض العلماء ومنعها البعض الآخر ، وقالوا الزائر لابد ان يكون مشغولا بالاعتبار ، وقراءة القرآن يحتاج صاحبها إلى التـــدبر واحضار الفكرة فيما يتلوه ، وفكرتان لا تجتمعان فى قلب واحد فى زمان واحد .

فان قال قائل : أنا اعتبر فى وقت ، وأقرأ فى وقت آخر والقرآن إذا قرىء تنزل الرحمة فلعل أن يلحق بالميت من تلك الرحمة شىء ينفعه ، فالجواب من وجوه .

الاول : إن قراءة القرآن وان كانت عبادة ، لكن كون الزائر مشغولا بما تقدم من الفكرة ؛ والاعتبار فى حال الموت وسؤال الملكين وغير ذلك عبادة أيضاً ، والوقت ليس محلا إلا لهذه العبادة فقط ، فلا يخرج من عبادة إلى أخرى سيما لأجل الغير .

والثانى : انه لو قرأ فى بيته وأهدى ثوابها إليه بأن قال بعد فراغه من قراءته اللهم اجعل ثواب ما قرأته لفلان الميت لوصل إليه لأن هذا دعاء له بوصول الثواب إليه والدعاء يصل بلا خلاف . فلا يحتاج ان يقرأ على قبره .

والثالث : إن قراءته على قبره قد تكون سبباً لعذابه أو لزيادة عذابه ، إذ كلما قرئت آية لم يعمل بها يقال له أما سمعتها فكيف خالفتها ، فيعذب لأجل مخالفته لها كما نقل عن بعض من ابتلى بما ذكر انه رؤى فى عذاب عظيم فقيل له أما تنفعك القراءة عندك ليلا ونهاراً ؛ فقال انها سبب لزيادة عذابى وذكر ما تقدم سواء .

فإذا كان كذلك فاللائق بالزائر أن يتبع السنة ويقف عند ماشرع له ولا يتعداه ليكون محسنا إلى نفسه وإلى الميت ، فان زيارة القبور نوعان زيارة شرعية وزيارة بدعية .

أما الزيارة الشرعية التى أذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمقصود منها شيئان (أحدهما) راجع إلى الزائر وهو الاعتبار والاتعاظ (والثانى) راجع إلى الميت وهو أن يسلم عليه الزائر ويدعو له ولا يطول عهده به فيهجره ويتناساه ، كما انه إذا ترك زيارة أحد من الاحياء يتناساه وإذا زاره فرح بزيارته وسر بذلك فالميت أولى به لانه قد صار فى دار هجر أهلها اخوانهم ومعارفهم ، فإذا زاره أحد

وأهدى إليه هدية من سلام ودعاء ازداد بذلك سروره وفرحه .

(وأما الزيارة البدعية) فزيارة القبور لأجل الصلاة عندها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود عليها وأخذ ترابها ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية والولد وقضاء الديون وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات ؛ وغير ذلك من الحاجات ، التي كان عبـــاد الاوثان يسألونها من أوثانهم ، فليس شيء من ذلك مشروعا باتفاق أئمة المسلمين إذ لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة والتابعين وسائر أئمة الدين ، بل أصل هذه الزيارة البدعية الشركية مأخوذة عن عباد الاصنام .

فانهم قالوا الميت المعظم الذى لروحه قرب ومزية عند الله تعالى لا يزال تأتيه الألطاف من الله تعالى وتفيض على روحه الخيرات ؛ فإذا علق الزائر روحه به وأدناه منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء الصافى ونحوهما على الجسم المقابل له .

ثم قالوا فتمام الزيارة ان يتوجه الزائر بروحه إلى الميت ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده وإقباله إليه . بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره ، وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به ، وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابى وغيرهما وصرح به عباد الكواكب ، وقالوا إذا تعلقت النفس الناطقة بالارواح العلوية فاض عليها منها نور ولهذا السر عبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل وصنفت لها الدعوات واتخذت لها الاصنام ، وهـــذا بعينه هو الذى أوجب لعباد القبور اتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها وتعليق الستور

عليها وإيقاد السرج عليها وإقامة السدنة لها ودعاء أصحابها والنذر لهم وغير ذلك من المنكرات .

والله هو الذى بعث رسله وأنزل كتبه لإبطاله وتكفير أصحابه ولعنهم وأباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم ، وهو الذى قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إبطاله ومحوه بالكلية وسد الذرائع المفضية إليه ؛ فوقف هؤلاء الضالون المضلون فى طريقه وناقضوه فى قصده وقالوا ان العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله تعالى وتوجه إليه بهمته وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه نصيب مما يحصل له من الله تعالى وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وقرب من السلطان وهو شديد التعلق به فما يحصل من السلطان من الانعام والأفضال ينال ذلك المتعلق به من حصته بحسب تعلقه به ، وبهذا السبب عبدوا القبور وأصحابها واتخذوهم شفعاء على ظن ان شفاعتهم تنفعهم عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد عليهم وإبطال رأيهم ، قال الله تعالى حكاية عن صاحب يس (ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) وقال الله تعالى (ام اتخذوا من دون الله شفعاء) وقال الله تعالى (لا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقال الله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فان الله تعالى علق الشفاعة فى كتابه بأمرين أحدهما رضاه عن المشفوع له والآخر اذنه للشافع ، فعلم من هذا ان الشفاعة لا يمكن حصولها ما لم يوجد مجموع هذين الأمرين ، وقال الله تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبؤون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض

سبحانه وتعالى عما يشركون) فبين سبحانه وتعالى ان المتخذين شفعاء مشركون ، وان الشفاعة لا تحصل باتخاذ الشفعاء وإنما تحصل بإذن الله تعالى للشافع ورضاه عن المشفوع له ، فمن اتخذ شفيعاً من دون الله فهو مشرك ، لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ، ومن اتخذ الرب تعالى وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه الذى يتقرب إليه ويطلب رضاه ويجتنب سخطه فهو الذى يأذن الرب تعالى للشافع ان يشفع فيه .

ولهذا كان أولى بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا توحيدهم وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه ، وأما أهل الشرك الذين اتخذوا من دون الله تعالى شفعاء فإنه تعالى لا يرضى عنهم ولا يأذن للشفعاء ان يشفعوا فيهم ، وسر ذلك ان الامر كله لله وحده ليس لاحد معه من الامر شيء ،واعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده الرسل والملائكة المقربون وهم مملوكون مربوبون أفعالهم وأقوالهم مقيدة بأمره وإذنه لا يسبقونه بالقول ولا يفعلون شيئاً إلا بأذنه وأمره فإذا أشركهم أحد به تعالى واتخذهم شفعاء من دونه ظناً منه إنه إذا فعل ذلك يتقدمون بين يديه ويشفعون له، فهو من أجهل الناس بحقه تعالى ؛ وما يجب له وما يمتنع عليه حيث قاسوا الرب تعالى على الملوك والكبراء الذين يتخذ بعض من خواصهم وأوليائهم من يشفع لهم عندهم فى الحوائج والمهمات .

وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام ؛ واتخذت من دون الله شفعاء ، وهذا أصل شرك الخلق ومع هذا فهو تنقيص لجانب الربوبية وهضم لحقها لان من اتخذ شفيعاً عند الله تعالى ، اما ان يظن انه تعالى لا يعلم مراد عباده حتى يعلمه الواسطة أو لايسمع دعاءهم لبعده

عنهم فيحتاج أن يرفعه الواسطة إليه؛ أو لا يفعل ما يريده العباد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق فى أمر لا يريد أن يفعله فيقبل شفاعته لحاجته إليه وانتفاعه به وتكثره به من القلة، وتعززه به من الذلة، أو لا يقضى حاجاتهم حتى يسألوا الواسطة ان ترفع تلك الحاجات إليه كما هو حال ملوك الدنيا أو يظن ان للمخلوق عليه حقاً فهو يتوسل إليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا يمكنهم مخالفته إذ هو فى الحقيقة شريكهم وان كان عبدهم ومملوكهم، فإن الشفعاء عند المخلوقين من الملوك والسلاطين شركاؤهم لأن انتظام أمرهم وقيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم فى الناس. فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وان لم يأذنوا فيها ولم يرضوا لها لأنهم إن ردوها ولم يقبلوها يخافون ان ينقضوا طاعتهم ويذهبوا إلى غيرهم فلا يجدون بدا من قبول شفاعتهم على الكره والرضاء، فإن الشفيع فى المخلوق مستغن عن المشفوع إليه فى أكثر أموره وإن كان محتاجاً إليه فى بعض ما يناله من رزق وغيره، كما أن المشفوع إليه محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصرة والمعاونة وغير ذلك. فكل منهما محتاج إلى الآخر

وأما الغنى الذى غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه مفتقر إليه بذاته، فإن جميع من فى السموات والأرض عبيداً له مقهورون بقهره مصروفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة، فلا يملك منهم أحد ان يشفع بنفسه عنده إلا بإذنه فالشفاعة كلها له كما قال الله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) وهو الذى يشفع بنفسه على نفسه يرحم عبده فيأذن لمن يشاء أن يشفع فيه،

فصارت الشفاعة فى الحقيقة إنما هى له ، والذى يشفع عنده إنما يشفع بإذنه وأمره إياه بعد شفاعته إلى نفسه ، وهى إرادته من نفسه ان يرحم عبده كما قال الله تعالى (ليس لهم من دونه من ولى ولا شفيع) وفى آية أخرى (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع)

فأخبر سبحانه وتعالى ان ليس للعباد شفيع من دونه فإنه إذا أراد رحمة عبده يأذن لمن يشفع فيه أن يشفع فيه كما قال الله تعالى (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ، ولا الشافع شفيعاً من دونه بل هو شفيع بإذنه ، بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض فانها ليست بالإذن بل هو سعى فى سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به إلى قبولها ولو على كره منه إما بقوة وسلطان وإما برغبة فى إحسان ، فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها وإما رهبة يندفع عنها ، بخلاف الشفاعة عند الرب تعالى فإنه مالم يخلق شفاعة الشافع ولم يأذن له فيها لا يمكن وجودها ، والشافع لا يشفع عند الرب تعالى لحاجة الرب إليه ولا لرهبته منه ولا لرغبته فيما لديه ، وإنما يشفع عنده بمجرد امتثال لأمره وطاعته له فهو مأمور بالشفاعة مطيع بإمتثال الأمر، فان أحداً من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئته تعالى هو الذى يحرك الشفيع حتى يشفع ، والشفيع عند المخلوق هو الذى يحرك المشفوع إليه حتى يقبل .

ومن وفق لفهم هذا المعنى يتحقق عنده التوحيد ويتخلص ، فإن الشرك ملزوم للتنقيص ، والتنقيص لازمله ضرورة شاء المشرك أوأبى ولكون الشرك منقصاً للربوبية اقتضى حكمته تعالى ، وكال ربوبيته

أن لا يغفره ويخلد صاحبه فى النار ، ولا تجد مشركا قط إلا وهو منتقص لله تعالى وان زعم أنه يعظمه كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو منتقص للرسول عليه السلام وان زعم أنه معظم بالبدعة ، بل يزعم بأنها خير من السنة وأولى بالصواب فهو مشاق لله ولرسوله إن كان متبصرا فى بدعته وان كان جاهلا مقلدا يزعم أنها هى السنة .

قال ابن القيم فى إغاثته : ما أحسن ما قال مالك بن أنس لن يصلح آخر هذه الامة إلا ما اصلح أولها ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود انبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما احدثوه من الشرك والبدع ، ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان الصحابة والتابعون حين كانت الحجرة النبوية منفصلة عن المسجد إلى زمن الوليد بن عبد الملك لا يدخل فيها أحد لا لصلاة ولا لدعاء ولا لشيء آخر مما هو من جنس العبادة ؛ بل كانوا يفعلون جميع ذلك فى المسجد ، وكان أحدهم إذا سلم على النبي عليه السلام وأراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا .

قال سلمة بن وردان . رأيت انس بن مالك يسلم على النبي (ص) ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو ، وهذا مما لا نزاع فيه بين العلماء وإنما نزاعهم فى وقت السلام عليه ، قال أبو حنيفة رحمه الله يستقبل القبلة عند السلام أيضا ولا يستقبل القبر ، وقال غيره يستقبل القبر عند السلام خاصة ولم يقل أحد من الأئمة الاربعة أنه يستقبل القبر عند الدعاء إلا حكاية مكذوبة عن مالك ومذهبه بخلافها ، وكذلك الحكاية المنقولة عن الشافعى رحمه الله كان يقصد الدعاء عند قبر أبى حنيفة رحمه الله فإنها من الكذب الظاهر ؛ بل قالوا أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ولا يستقبل القبر حتى لا يكون الدعاء عند القبر ، فإن الدعاء عبادة كما ثبت فى الترمذي

مرفوعا الدعاء هو العبادة ، فالسلف من الصحابة والتابعين جردوا العبادة لله تعالى ولم يفعلوا عند القبر منها شيأ إلا ما أذن فيه النبي عليه السلام من السلام على أصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم .

والحاصل أن الميت قد انقطع عمله وهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع لاجله ، ولهذا شرع فى الصلاة عليه من الدعاء له وجوباً واستحبابا ما لم يشرع مثله فى الدعاء للحى ، قال عوف ابن مالك صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه واكرم منزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الذنوب والخطايا كما نقيت الثوب الابيض من الدنس وابدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وزوجا خيرا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار ، حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الميت رواه مسلم

وقال أبو هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى صلاته على الجنازة اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للاسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلانيتها الحديث رواه الإمام أحمد رحمه الله وفى سنن أبى داود رحمه الله عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه عليه السلام قال إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء وعن عائشة وأنس أنه عليه السلام قال ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه رواه مسلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من رجل يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيأ إلا شفعهم الله فيه رواه مسلم .

فعلم من هذاأن المقصود من الصلاة على الميت هو الدعاء له والاستغفار لاجله والشفاعة فيه ، فإنا لما كنا إذا وقفنا على جنازته ندعو له ولا ندعوا به ونشفع له ولا نستشفع به ، فبعد الدفن أولى وأحرى ؛ لانه فى قبره بعد الدفن أشد احتياجا إلى الدعاء منه على نفسه ، فإنه حينئذ معرض للسؤال وغيره ، وقدروى أبو داود عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه عليه السلام كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسئل .

وروى عن سفيان الثورى رضى الله عنه أنه قال إذا سئل الميت من ربك يترا آى له الشيطان فى صورة فيشير إلى نفسه إنى أنا ربك ، قال الترمذى : فهذه فتنة عظيمة ولذلك كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعو بالثبات فيقول اللهم ثبت عند المسألة منطقه وافتح أبواب السماء لروحه .

وكانوا يستحبون إذا وضع الميت فى اللحد أن يقال : اللهم اعذه من الشيطان الرجيم .

فهذه سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أهل القبور بضعاً وعشرين سنة ، وهذه سنة الخلفاء الراشدين ، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين ، فبدل أهل البدع والضلال قولا غير الذى قيل لهم فإنهم بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه أو بالدعاء به ، وبدلوا الشفاعة له بالاستشفاع به ؛ وقصدوا بالزيارة التى شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم إحسانا إلى الميت وإلى الزائر سؤال الميت ، والاقسام به على الله تعالى ، وخصصوا تلك البقعة بالدعاء الذى هو مخ العبادة وجعلوا حضور القلب وخشوعه عندها أعظم منه فى المساجد وأوقات الاسحار ؛ ومن المحال أن يكون دعاء الموتى والدعاء بهم والدعاء عند قبورهم مشروعا عملا

صالحا ويصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله صلى الله عليه ثم يظفر به الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون.

فإن كنت فى شك من هذا فانظر هل يمكن بشراً على وجه الأرض أن يأتى عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع انهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها، فضلا أن يصلوا عندها ويسألوا الله تعالى بأصحابها ويسألوهم حوائجهم، فليقفونا على أثر واحد منها فى ذلك.

كلا لا يمكنهم ذلك بل يمكنهم أن يأتوا بكثير من ذلك عن الخلوف التى خلفت من بعدهم، ثم كلما تأخر الزمان وطال العهد، كان ذلك أكثر، حتى لقد وجد فى ذلك عدة مصنفات ليس فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن الخلفاء الراشدين ولا عن الصحابة والتابعين حرف واحد من ذلك، بل فيها من خلاف ذلك كثير كما سبق من الأحاديث المرفوعة التى من جملتها قوله عليه الصلاة والسلام (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر ولا تقولوا هجرا) أى فحشا. وأى فحش أعظم من الشرك عندها قولا وفعلا

وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يحاط بها ومن ذلك ما فى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أنس بن مالك رضى الله عنه يصلى عند القبر فقال القبر القبر

قال ابن القيم فى إغاثته : وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور، وفعل أنس لا يدل على اعتقاد جوازه فإنه لعله لم يره أو لم يعلمه قبرا وذهل عنه فلما نبهه عمر رضى الله عنه تنبه.

وقد ذكر محمد ابن اسحاق فى مغازيه من زيادات يونس بن بكير

عن أبي خلدة خالد ابن دينار قال حدثنا أبو العاليه قال لما فتحنا تستر وجدنا في بيته مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا كعبا فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأته فقرأته مثل ما أقرأ القرآن ، فقلت لأبي العالية ما كان فيه ؟ قال سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد ، قلت من كنتم تظنون الرجل قال رجل يقال له دانيال عليه السلام فقلت منذ كم وجدتموه مات ؟ قال منذ ثلاثمائة سنة فقلت ما كان تغير منه شيء قال لا إلا شعيرات من قفاه إذ لحوم الانبياء لاتبليها الارض ولا تأكلها السباع ؛ فقلت ما كانوا يرجون منه قال كانت السماء إذا حبست عنهم أبرزوا السرير فيمطرون ؛ فقلت فما صنعتم به [1] قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه .

فانظر في القصة وما فعله المهاجرون والانصار كيف سعوا في تعمية قبره لئلا يفتتن الناس به ولم يبرزوه للدعاء عنده وللتبرك به ، ولو ظفر به هؤلاء الخلوف لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله تعالى ، فإنهم قد اتخذوا من القبور أوثانا من لا يدانيه ولا يقاربه ، وبنوا عليها الهياكل وأقاموا لها سدنة وجعلوها معابد أعظم من المساجد .

فلو كان الدعاء والصلاة عند القبور فضيلة أو سنة أو مباحا لنصب المهاجرون والانصار هذا القبر علما لذلك ودعوا عنده وسنوا ذلك لما بعدهم ، ولكنهم كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من هؤلاء الخلوف الذين ضلوا عن الطريق المستقيم ، وكذلك التابعون لهم باحسان راحوا على هذا السبيل ، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أي بدانيال اه

وسلم فى الامصار عدد كثير ، وهم متوافرون ، فما منهم من استغاث عند قبر أحد ولا دعاه ولا دعا به ولا استنصر به ، فلو كان وقع شيء منها لنقل ، إذ من المعلوم ان مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعى على نقله ، فحينئذ ان الدعاء عند القبور والدعاء بأربابها لايخلو إما ان يكون أفضل منه فى غير تلك البقعة أو لا ، فإن كان أفضل كيف خفى علما وعملا على الصحابة والتابعين وتابعيهم فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة بهذا الفضل العظيم ؛ وتظفر به الخلوف علما وعملا ، ولا يجوز ان يعلموه ويزهدوا فيه مع حرصهم على كل خير لاسيما إذا ظهر لهم حاجة فاضطروا إلى الدعاء فإن المضطر يتشبث بكل سبب وان كان فيه كراهة ما ، وهم كيف يكونون مضطرين فى كثير من الدعاء ويعلمون فضل الدعاء عند القبور ثم لم يقصدوه ؛ هذا محال طبعا وشرعا ؛ فتعين القسم الآخر الذى هو أنه لا فضل للدعاء عند القبور ؛ ولا هو مشروع ؛ ولا مأذون فيه بل هو مما شرعه عباد القبور ، ولم يشرعه الله ولم ينزل به سلطانا .

وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير كما روى غير واحد عن المعرور بن سويد أنه قال صليت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها (ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل (و) لإيلاف قريش) ثم رأى الناس يذهبون مذاهب فقال أين يذهب هؤلاء ؛ فقيل يا أمير المؤمنين مسجد فيه صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يصلون فيه فقال : إنما هلك من

كان قبلكم بمثل هذا كانوا يتبعون آثار أنبياءهم ويتخذونها كنائس وبيعا فمن أدركته الصلاة فى هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها .

وكذلك لما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التى بايع تحتها رسول الله (ص) أصحابه أرسل فقطعها رواه بن وضاح فى كتابه فقال : سمعت بن يونس يقول أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبي عليه الصلاة والسلام فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون إلى الشجرة فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة .

روى أبو بكر الخلال بإسناده عن حذيفه بن اليمان أنه قال لرجل جعل فى عضده خيطا من الحمى ، لو مت وهذا عليك لم أصل عليك؛ بل قد أنكر رسول الله ﷺ على الصحابة لما سألوه أن يجعل لهم شجرة يعلقون عليها أسلحتهم وأمتعتهم بخصوصها كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى واقد الليثى أنه قال خرجنا مع رسول الله (ص) قبل حنين ونحن حديثوا عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم وأمتعتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي عليه الصلاة والسلام :الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ثم قال انكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم .

فإذا كان اتخاذ هـــذه الشجرة لتعلق الاسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله تعالى مع انهم لا يعبدونها ولا يسألونها شيئاً

فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء عنده ودعاء صاحبه والدعاء به .

فمن له خبرة بما بعث الله به رسوله وبما عليه أهل البدع والضلال اليوم فى هذا الباب علم أن بين السلف وبين هؤلاء الخلوف من البعد أبعد ما بين المشرق والمغرب .

وقد ذكر البخارى فى صحيحه عن أم الدرداء أنهـا قالت دخل أبو الدرداء مغضباً فقلت مالك فقال والله ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنهم يصلون جميعاً .

وقال الزهرى دخلت على أنس بن مالك رضى الله بدمشق وهو يبكى فقلت له ما يبكيك فقال ما أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت. ذكره البخارى

وقال المبارك بن فضالة صـلى الحسن الجمعة وجلس فبكى فقيل له ما يبكيك يا أبا سعيد ، فقال تلوموننى على البكاء ولو أن رجـلا من المهاجرين اطلع على باب مسجدكم ما عرف شيئاً مما كان عليه على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أنتم اليوم عليه إلا قبلتكم هذه ، وهذه إشارة إلى الفتنة العظمى التى قال فيها عبد الله بن مسعود كيف أنتم إذا لبستكم فتنـة يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير ، تجرى على الناس يتخذونها سنة ، وإذا غيرت قيل غيرت السنة أو هذا منكر .

قال ابن القيم فى إغاثته : وهذا مما يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به ولا التفات إليه ، وقد جرى العمل على خلاف السنة منذ زمن أبى الدرداء وأنس كما سمعت آنفاً .

وإنمـا اشتغل كثير من الناس بأنواع العبادات المبتدعة التى يكرهها

الله تعالى ورسوله لاعراضهم عن المشروع فانهم وان أقاموه بصورته الظاهرة لكنهم هجروا حقيقته المقصودة منه ، وقد ثبت ان الشرائع أغذية القلوب ، فلما غذيت بالبدع لم يبق فيها فضل وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه مراعياً لما شرع فيها من السنن والواجبات عارفاً بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح ، واهتم بها كل الاهتمام ؛ وجد فى ذلك من الأحوال الزكية والمقامات العلية ما يغنيه عن الشرك والبدع .

ومن قصر فيها يوجد فيه الشرك والبدع بحسب ذلك ، ومن أصغى إلى كلام الله تعالى بقلبه ، وإلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكليته وهيأ نفسه لاقتباس العلم والهدى منهما لا من غيرهما وجد فى كل منهما من أنواع العلوم النافعة ما يميز به بين الحق والباطل والحسن والقبيح ويغنيه عن البدع والخيالات التى هى وساوس النفوس والشياطين.

ومن بعد عن ذلك فلا بد ان يتعوض عنه بما ينفعه ، كما ان من عمر قلبه بمحبة الله تعالى وذكره وخشيته والتوكل عليه والانابة إليه وجد فى ذلك من الحالات السنية ما يغنيه عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه ، وإذا خلا عن ذلك صار عبد هواه ، وأى شىء استحسنه يملكه ذلك الشىء ويعبده .

فالمعرض عن التوحيد مشرك وكافر شاء أم أبى ، والمعرض عن السنة مبتدع ضال شاء أم أبى .

فان قيل فما الذى أوقع عباد القبور فى الافتتان بها مع العلم بأن ساكنيها لا يملكون لهم ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

قيل أوقعهم فى ذلك أمور ، منها الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله

بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك ، فالذين قل نصيبهم من ذلك إذا دعاهم الشيطان إلى الفتنة بها ولم يكن لهم من العلم ما يبطل دعوته استجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل وعصموا بقدر ما معهم من العلم

ومنها أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها اشباه عباد الاصنام من المقابرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تناقض دينه وما جاء به كحديث (إذا أعيتكم الامور فعليكم بأصحاب القبور) وحديث (لو حسن أحدكم ظنه بحجر نفعه) وأمثال هذه الاحاديث التى هى مناقضة لدين الإسلام وضعها عباد القبور ، وراجت على أشباههم من الجهال والضلال والله تعالى بعث رسوله عليه اسلام لقتل من حسن ظنه بالاحجار والاشجار .

وجنب أمته الفتنة بالقبور بكل طريق ، كما تقدم ، ومنها حكايات حكيت لهم عن أهل تلك القبور أن فلاناً استغاث بالقبر الفلانى فى شدة فخلص منها ، وفلان دعاه أو دعا به فى حاجة فقضيت حاجته ، وفلان نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره .

وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره ، وهم من أكذب خلق الله تعالى على الاحياء والاموات ، والنفوس مولعة بقضاء بقضاء حوائجها وإزالة ضروراتها ، فإذا سمع أحد ان قبر فلان ترياق مجرب يميل إليه ، والشيطان له تلطف فى الدعوة فيدعوه أولا إلى الدعاء عنده فيدعو عنده بحرقة وإنكسار وذلة ، فيجيب الله تعالى دعوته لماقام بقلبه من الذلة والانكسار لا لاجل القبر ، فإنه لو دعا كذلك فى الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه ، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيراً فى إجابة

تلك الدعوة والله تعالى يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً؛ فليس كل من أجاب الله تعالى دعاءه يكون راضياً عنه ، ولا محبا له ولا راضياً بفعله ، فإنه تعالى يجيب دعاء البر والفاجر والمؤمن والكافر .

وكثير من الناس يدعو دعاء يعتدى فيه أو يشرك أو يكون فيه مالا يجوز أن يسئل ، فيحصل له ذلك كله أو بعضه ، فيظن أن عمله صالح مرضى عند الله تعالى ، ويكون كمن أملى له ، وأمده بالمال والبنين وهو يظن أن الله تعالى يسارع له فى الخيرات ، وقد قال الله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء) فالدعاء قد يكون عبادة فيثاب عليه الداعى ، وقد يكون مسألة تقضى حاجته ، ويكون مضرة عليه اما أن يعاقب بما يحصل له أو ينقص به درجته ، فانه تعالى يقضى حاجته ويعاقبه على ما جرأ عليه من اضاعة حقوقه وارتكاب حدوده .

والمقصود أن الشيطان يلطف كيده للانسان بتحسين الدعاء له عند القبر وجعله أرجح منه فى بيته ومسجده وأوقات الاسحار فإذا قرر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء بصاحب القبر والاقسام على الله تعالى به ، وهذا أعظم من الذى قبله فإن شأنه تعالى أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه .

وقد انكر أئمة الاسلام ذلك فقال أبو الحسن القدورى فى شرح كتاب الكرخى قال بشر بن الوليد سمعت أبايوسف يقول قال أبو حنيفة لاينبغى لاحد أن يدعو الله تعالى إلا به ، قال وأكره أن يقول أسألك بمعقد العز من عرشك وأكره أن يقول بحق فلان وبحق انبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام .

قال أبو الحسن أما المسألة بغير الله فمنكرة فى قولهم لانه لا حق لغير الله عليه وإنما الحق لله تعالى على خلقه .

وقال ابن بلدجى فى شرح المختار (ويكره أن يدعو الله تعالى إلا به فلا يقول أسألك بفلان أو بملائكتك أو بأنبيائك أو نحو ذلك ، لأنه لا حق للمخلوق على خالقه ، أو يقول فى دعائه أسألك بمعقد العز من عرشك ، وعن أبى يوسف جوازه لما روى أنه عليه السلام دعا بذلك ، ولأن معقد العز من العرش إنما يراد به القدرة التى خلق الله تعالى بها العرش مع عظمته فكأنه سئل بأوصافه .

وما قال فيه أبو حنيفة وأصحابه : أكره كذا ، فهو عند محمد حرام ، وعند أبى حنيفة وأبى يوسف هو إلى الحرام أقرب ، وجانب التحريم عليه أغلب .

فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله تعالى به والدعاء به أبلغ فى تعظيمه واحترامه وانجح فى قضاء حاجته نقله درجة اخرى إلى دعائه نفسه من دون الله تعالى والنذر له ، ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنا يعكف عليه ويوقد عليه القنديل والشمع ، ويعلق عليه الستور ، ويبنى عليه المسجد ويعبده بالسجود له والطواف به وتقبيله واستلامه والحج اليه والذبح عنده ، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا ، وان ذلك أنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم .

قال ابن القيم فى إغاثته نقلا عن شيخه : وهذه الامور المبتدعة عند القبور على مراتب أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجته ويستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس ، وهؤلاء من جنس عباد الأصنام ولهذا يتمثل لهم الشيطان فى صورة الميت أو الغائب فى بعض الازمان

كما يتمثل لعباد الأصنام ، فإنه يدعو من يعظمه فيتمثل له الشيطان ويخاطبه ببعض الأمور الغائبة ، فإن الشيطان يضل بنى آدم بحسب قدرته ، فمن عبد الشمس والقمر وسائر الكواكب ودعاها فإن الشيطان ينزل عليه ويخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ، ويسمون ذلك روحانية الكواكب وهو الشيطان ، فإنه وإن أعان الإنسان ببعض مقاصده لكنه يضره أضعاف ماينفعه وكذلك يوجد بعباد القبور عند القبور أحوال يظنون أنها كرامات وهى من الشيطان : مثل أن يوضع عند قبر من يظن كرامته مصروع ، فيرون ان الشيطان قد فارقه فإنه يفعل ليضل .

ومن عظيم كيده ما نصبه للناس من الانصاب والازلام التى هى رجس من عمل الشيطان وقد أمر الله المؤمنين باجتنابه وعلق فلاحهم بذلك الاجتناب فقال (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) الآية فالانصاب جمع نصب بضمتين أو بالفتح والسكون وهو كل ما نصب وعبد من دون الله من شجر أو حجر أو وثن أو قبر .

قال مجاهد وقتادة وابن جريج كان حول البيت احجار وكان أهل الجاهلية يعظمون تلك الأحجار ويعبدونها ويذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، وهى ليست بأصنام ؛ وإنما الصنم ما يصور وينقش .

وأصل اللفظ الشىء المنصوب الذى يقصده من رآه فمن الأصنام مانصبه الشيطان للناس من شجرة أو عمود أو قبر وغير ذلك ، والواجب هدم ذلك كله ؛ ومحو أثره ، كما ان عمر رضى الله تعالى عنه لما بلغه ان الناس ينتابون الشجرة التى بويع تحتها النبى صلى الله عليه وسلم أرسل فقطعها فإذا كان عمر رضى الله تعالى عنه فعل ذلك بالشجرة التى بايع تحتها

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرها الله تعالى فى القرآن حيث قال (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فما حكمه فيما عداها من هذه الانصاب التى قد عظمت الفتنة بها واشتدت البلية بسببها .

وأبلغ من ذلك أنه عليه السلام هدم مسجد الضرار ، ففى هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً كالمساجد المبنية على القبور فإن حكم الإسلام فيها ان تهدم كلها حتى تسوى بالأرض .

وكذلك القباب التى بنيت على القبور يجب هدمها لأنها أسست على معصية الرسول ، وكل بناء أسس على معصيته ومخالفته فهو أولى بالهدم من مسجد الضرار لأنه عليه السلام نهى عن البناء على القبور ولعن المتخذين عليها مساجد ، وأمر بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض فيجب المبادرة والمسارعة إلى هدم ما نهى عنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولعن فاعله ، وكذلك يجب إزالة كل قنديل وسراج وشمع أوقدت على القبر ، فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله ﷺ والله تعالى يقيم لدينه ولسنة رسوله من ينصرهما ويذب عنهما .

قال الإمام أبو بكر الطرطوشى انظروا رحمكم الله تعالى أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق فهى ذات أنواط فاقطعوها .

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبى شامة فى كتاب الحوادث والبدع : ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق بعض الحيطان والعمد . وشرح مواضع

مخصوصة من كل بلد يحكى لهم حاك انه رأى فى منامه بها احد ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسنة رسوله ويظنون انهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهى بين شجر وحجر وحائط وعين يقولون ان هذا الشجر وهذا الحجر وهذا العين يقبل النذر أى العبادة من دون الله تعالى ، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له ، ويتمسحون بذلك النصب ويستلمونه .

ولقد انكر السلف التمسح بحجر المقام الذى امر الله تعالى ان يتخذ منـــه مصلى كما ذكر الأزرقى فى كتاب مكة عن قتادة فى قوله تعالى « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » قال انما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا ان يمسحوه بل اتفق العلماء على انه لا يستلم ولا يقبل إلا الحجر الاسود ، واما الركن اليمانى فالصحيح انه يستلم ولا يقبل .

وأعظم الفتنة بهذه الانصاب فتنة أصحاب القبور وهى أصل فتنة عباد الأصنام ، كما قال السلف من الصحابة والتابعين فإن الشيطان ينصب لهم قبر رجل معظم يعظمه الناس ثم يجعله وثنا يعبد من دون الله ثم يوحى إلى أوليائه ان من نهى عن عبادته واتخاذه عيداً وجعله وثناً ، فقد تنقصه وهضم حقه فيسعى الجاهلون فى قتـــله وعقوبته ، ويكفرونه وما ذنبه إلا انه أمر بمـا أمر به الله تعالى ورسوله ونهى عما نهى الله عنه ورسوله .

واما الازلام : فقال سعيد بن جبير كانت لأهل الجاهلية حصيات

إذا اراد أحدهم ان يغزو أو يجلس استقسم بها أى طلب بها ما قسم له .

وقال أيضاً هى القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهليه فى أمورهم مكتوب على أحدهما أمرنى ربى ، وعلى الآخر نهانى ربى فإذا أرادوا أمرا ضربوا بها فإن خرج الذى عليه امرنى ربى فعلوا ما هموا به ، وإن خرج الذى عليه نهانى ربى تركوه .

وقال الازهرى (وأن تستقسموا بالازلام) أى وأن تطلبوا من جهة الازلام ما قسم لكم من أحد الامرين .

وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره الاستقسام بالازلام حرام ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم لا تخرج من أجل طلوع نجم كذا أو أخرج لأجل طلوع نجم كذا لأن الله تعالى يقول (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) وذلك دخول فى علمه تعالى الذى هو غيب عنا فهو حرام .

ويدخل فيه الفأل الذى يفعل فى زماننا ويسمونه فأل القرآن وفأل دانيال عليه السلام أو نحوهما فإنهما من قبيل الاستقسام بالازلام ، فلا يجوز استعمالها ولا اعتقادها لأن فيها الخبر عن الغيب والتطير بالقرآن العظيم وإنما الفأل التيمن والتبرك بالكلمة الموافقة للمراد كالراشد والنجيح لما روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه عليه السلام قال لا عدوى ولا طيرة ويعجبنى الفأل قالوا وما الفأل قال كلمة طيبة ، وروى الترمذى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه عليه السلام كان يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع يا راشد يا نجيح .

والحاصل ان عباد الله الصالحين إذا عرض لهم أمر من أمور الدين والدنيا يستخيرون الله تعالى فيه بالاستخارة التى رواها البخارى فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الامور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن فيقول « إذا هم أحدكم بالامر

فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى وآجله فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ؛ وان كنت تعلم ان هذا الامر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه ؛ واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به .

وأما أهل الفسق والجهلة الذين ضلوا عن طريق الهدى فإن أحدهم إذا عزم على أمر ذهب إلى المنجم والكاهن وصاحب الرمل والحصى فيلعبون بعقله ويزداد بسؤالهم جهلا وخسارا . ويصدقهم بما قالوا له ويعطيهم على ذلك أجرة ، ولا يعلم ذلك المسكين أن ذلك يهدم دينه ودنياه لما روى أنه عليه السلام قال من أتى كاهنا فسأله عن أمر ثم صدقه بما أخبر به لم تقبل صلاته أربعين صباحا . وفى رواية من صدق كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد عليه السلام .

والكاهن هو المنجم سواء كان برمل أو حصى أو شعير أو غير ذلك والمقصود أن كثيرا من الناس ابتلوا بالانصاب والازلام ، فالانصاب للشرك والعبادة ، والازلام للتكهن وطلب علم استأثر الله تعالى به واستبد ، فهذه للعلم وتلك للعمل ، ودين الله تعالى مضاد لهذا وهذا ؛ وإنما الرسول عليه السلام بعث لإبطالها .

والله المستعان وعليه التكلان
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

ترجمة المؤلف

(من كتاب العقد المنظوم)

ومن تعانى العلم والعمل * وحصل وكمل * فالتحق فى شبابه بالمشايخ الكمل * الشيخ محي الدين الشهير ببركوى .

كان رحمه الله من قصبة بالى كسرى وكان أبوه رجلا عالما من أصحاب الزوايا (ولا غرو فان فى الزوايا خبايا) ونشأ المرحوم فى طلب المعارف والعلوم ، ووصل إلى مجلس العظام ودخل محافل الكرام ؛ وعكف على التحصيل والافادة ، من الافاضل السادة ، منهم المولى محي الدين المشتهر بأخى زاده وصار ملازما من المولى عبد الرحمن ، أحد قضاة العسكر فى عهد السلطان سليمان ، ثم غلب عليه الزهد والصلاح ، ولاح فى جبينه آيات الفوز والفلاح ، فتحول عن مضايق الشكوك ، إلى مسارح السلوك ، واتصل بخدمة المرشد السامى الشيخ عبد الله القرمانى البيرامى فخدمه مدة بحسن الارادة واستفرغ مجهوده فى الزهد والعبادة ، ثم أمره شيخه بالعود والاشتغال بمدارسة العلوم ، ومذاكرة المنطوق والمفهوم ، والتصدى للامر بالمعروف والنهى عن المنكرات ، والوعظ بالزواجر الزاجرات ، وحصل بينه وبين المولى عطاء الله محبة اكيدة ومودة شديدة ، فأقبل بحسن الالتفات عليه ، وبنى مدرسة فى قصبة (بركى) وفوض تدريسها إليه ، وعين له كل يوم ستين درهما ، فكان رحمه الله يدرس تارة ويعظ أخرى ، بما هو أليق وأحرى ، فقصده الناس من كل فج عميق ، وآوى إليه الطلبة من كل مكان سحيق ، واجتمع عليه الطلاب ، واشتغلوا عليه من كل فصل وباب ، وأكب هو على الاشتغال بيومه وأمسه ، وانتفع الناس بوعظه ودرسه ، فكم من أسير فى غيابة الجهالة ، مقيد بسلاسل الشؤن والبطالة ؛ نال بسببه شرف العلم وعزه ما ناله ، وكم من تائه بمهامه

هواه ، عاد إلى السبيل بهداه .

كان رحمه الله فى طرف عال من الفضل والكمال ، وتتبع الكتب والرسائل ، وجمع القواعد والمسائل ، وجمع العلم وتبحر فيه ؛ وحوى من الفضل والمعرفة ما يكفيه ، شرح مختصر البيضاوى فى النحو ، وكتب متنا لطيفا فى علم الفرائض ، وله فى الحديث وتفسير القرآن والفقه تعاليق ورسائل اخترمته دونها المنية ، ففاته حصول الامنية .

وكان رحمه الله آية فى الزهد والصيانة ، وفى الورع والديانة ؛ رأسا فى التجنب والقوى متمسكا بما هو أتم وأقوى ، قائما على الحق فى كل مكان ، يرد على من خالف الشريعة كائنا من كان ؛ لا يهاب أحداً لعلو رتبته ، وسمو منزلته ، جاء فى آخر عمره إلى قسطنطينية ، ودخل مجلس الوزير محمد باشا ؛ وكلمه فى قمع الظلمة ودفع المظالم ، بكلمات أحد من السيوف الصوارم ، وملأ بفرائد المواعظ ذلك النادى ؛ ولكن لا حياة لمن تنادى وكان المرحوم لا يرى الاستئجار على التلاوة وتعليم العلوم ، ويباحث فيه مع الفحول بالمنقول والمعقول ، وتوفى رحمه الله فى شهر جمادى الاولى سنة (إحدى وثمانين وتسعمائة) وهو مكب على الزهد والعبادة ، كتب الله له الحسنى وزيادة اه

الفهرس

مطبوعات تطلب من مطبعة الإمام

(١٣ شارع قرقول المنشية بالقلعة بمصر)

٥٠ قرش ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ، جزآن فى غلاف واحد هدم به طواغيت الطوائف الزائغة من تقديم المعقول على المنصوص ، وزعمهم المجاز فى صفات الله من العلو والاستواء والكلام فراراً من التشبيه بزعمهم .

٤٠ قرش ـ حسن الأسوة فيما ثبت من الله ورسوله فى النسوة ـ للسيد صديق حسن خان جمع فيه كل ما يتعلق بالمرأة وما تنفرد به عن الرجل فى الصلاة والصوم والحج ، وحقوقها كأم وكزوجة ، وكبنت وتعليمها وسفورها وحجابها . كل ذلك بالآيات والأحاديث .

٢٠ قرش ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ؛ تناول فيه هذه المصائب التى لا ينجو منها أحد وخفف من وقعها على القلوب بما ذكره من فوائدها للمصاب فى الدنيا والآخرة ، بما يجعل المؤمن راضياً عن ربه .

١٢ قرش ـ الإيمان وآثاره ، والشرك ومظاهره ـ كتاب يبين حقيقة الإيمان ؛ ويدفع القارىء دفعاً إلى تحقيقه فى نفسه ، ويذكر صفحات مشرقة للمؤمنين الصادقين كما يبين مفردات الشرك البغيض من نداء الموتى

١٢ قرش ـ دفاع عن الحديث النبوى ودفع شبهات المانعين من العمل به .

٤ قروش ـ تطهير الاعتقاد ، وشرح الصدور فى تحريم رفع القبور ، والتحف فى مذاهب السلف ؛ ثلاثة رسائل فى غلاف واحد .

٢ قرش ـ تفسير (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) للأئمة ابن جرير وابن كثير والقرطبى والشوكانى ؛ ومعها رسالة فى التعليق على حديث حياتى خير لكم ؛ للاستاذ محمد صادق عرنوس رحمه الله .